

الحركة السلفية في المغرب

للأستاذ علال الفاسي

أصل العرض التالي، محاضرة سبق للأستاذ خلال إقامته منيا بالقاهرة (منذ 1947) أن ألقاها بجامعة الأزهر. ومع الاستقلال (1956) بادر إلى نشرها ضمن مجموع في كتابه «حديث المغرب في المشرق» وعنها في تقديمه للكتاب يقول:

«... ولكل محاضرة من هذه المجموعة (= الكتاب) مناسبة نذكر منها على جهة المقال: مؤتمر الطرق الذي دعا إليه المستعمرون وانهقد بمدينة فاس ليخلق الجو الديني للمؤامرة التي دبرها الفرنسيون وأذناهم ضد العرائش وضد جلالة العاهل المحبوب محمد الخامس أيده الله؛ فقد كان هذا المؤتمر هو الذي أوحى لي بإلقاء محاضرة عن الحركة السلفية في المغرب تبين جهود السلفيين في الإصلاح وتأييد جلالة الملك لهم، وتعرف رجال الأزهر والمخلصين من المسلمين قيمة الطريقين الذين اجتمعوا في ذلك المؤتمر الاستعماري ليضللوا الناس باسم الدين».

وهي فضلا عن ذلك أيضا تكشف عن فكر الأستاذ علال باعتباره سلفيا ومجددا في السلفية، وبذلك يقوم النص التالي بوظيفتين تعريفيتين: للسلفية بالمغرب عموما، ولل فكر السلفي لعالل خصوصا.

الحركة السلفية في المغرب

حضرات أصحاب الفضيلة - سادتي

حينما طلب مني فضيلة الشيخ محمد عبد اللطيف دراز أن ألقى محاضرة في الأزهر ووكّل إلى اختيار موضوعها رأيت من الواجب على أن أتحدث عن موضوع الحركة السلفية في المغرب، علماً مني بأن ذلك أجدر بالإثارة في هذه الظروف التي يقوم فيها العالم العربي والاسلامي بنقد نفسه وامتحان ضميره وإعادة النظر في أساليب تفكيره وقوالب أعماله. وكل هذا لا يتم إلا بتجلية الروح الوثابة التي كان لها فضل إنارة العقول وتنوير القلوب في وقت غطت على الأولى خرافاتها وأوهامها، وأضرّت بالثانية ذنوبها وآثامها. والحركة السلفية هي التي تريد الرجوع بالدين إلى أصله الأصيل ومصدره النقي لتزيح عنه كل ما ألصقته الأجيال به من آثار الجمود والجحود وما غطت به حقائقه الناصعة تأويلات المبطلين وتحريفات الجاهلين. وقد أبى الله إلا أن يجعل أمثال هذه الحركة من طبيعة الإسلام نفسه ومن تدبير الله له، إذ هو حركة دائبة لا تعرف الوقوف، وانبعاث مستمر لا يستسلم لخمود.

ومهما تكن التطورات التي دخلت في العالم الاسلامي في هذا القرن، ومهما تكن فضائل الحركات المتعاقبة التي بعثت النهضة في جوانب العلم والسياسة والاقتصاد والفنون وغيرها فإن نقطة البداية لم تكن في الواقع إلا من حركات أولئك الذين دعوا للتجديد الإسلامي الصحيح وقاوموا كل أنواع الجمود الذي طالما غطى العقول ومنعها من الفهم والعلم.

وحركة التجديد الاسلامي هذه ظهرت في عصور مختلفة، فالإمام أحمد ابن حنبل وشيخ الإسلام ابن تيمية، والإمام الشاطبي، وأمثالهم من رجال المدارس الإصلاحية الكبرى لم يكونوا إلا ظاهرة من ظواهر هذه الحركة وروحانياتها، وما ذلك إلا تصديق لقوله عليه السلام «إن الله يبعث على رأس كل مائة سنة من يجدد لهذه الأمة أمر دينها».

على أن فضل هذه الحركة هو في قبولها للتطور والتوسع لأنها تقوم على تفتح القلوب والعقول واستعدادها للنظر والتبصر، ولذلك صح أن تكون السلفية الأخيرة جزءاً من حركة اليقظة والتحرر اللذين تقوم بهما الأمة العربية في هذا الجيل.

وإذا نحن نظرنا إلى الوراء نجد أن أول ظهور عصري للحركة السلفية كان في المشرق في نجد حيث قام الشيخ محمد بن عبد الوهاب بثورته التي أحدثت دوياً شديداً في الشرق الاسلامي، إذ صرخت في وجوه الذين ألفوا الخرافات وتعودوا البدع وقامت دولتهم على الإقطاع واستغلال نفوذ بعض رجال الدين في تعبيد الأمة العربية لحكم استبدادي جائر، فهبت تدعوهم لتجديد عقائد التوحيد وتخليصها من شوائب البدعة والضلال، والعودة الى الاسلام الطاهر والاستمداد من معينه الأولين: كتاب الله وسنة رسوله عليه السلام. وقد كان لهذه الثورة أثرها الفعال في أنحاء العالم الاسلامي، وإذا كان القائمون على الأمر في جوانب الدولة العثمانية قد قاوموها وألبوا عليها الخصوم من كل جهة تحوفاً من عواقبها السياسية وسيراً مع الدسائس الأجنبية التي كانت تفعل فعلها في الآستانة في العواصم التابعة لها فإن القائمين بالأمر في المغرب تلقوا هذه الدعوة بكل ما يمكن من الفهم والاحترام والتقدير لغايتها النبيلة ومبادئها السليمة.

والحق أنه وقع تجاوب بين الأفكار في نفس ملك المغرب السلطان مولاي سليمان العلوي مع زعماء الوهابية في نجد، وقد تكون البواعث مختلفة في باطن الأمر لأن دافع الوهابية اعتقادي أكثر منه اجتماعياً، بينما كان الباعث في نفس السلطان سليمان على اليقظة هي الحالة العامة للبلاد على أنها أثر من آثار الابتداع في العقيدة وفي السلوك.

وقد أوضحت في كتابي «النقد الذاتي» في حديثي عن المجتمع المغربي كيف تبلورت في وسطنا عقيدة الجبر، أو بالتدقيق كيف تأولنا عقيدة القضاء والقدر الاسلامية على أنها تعبير عن حتمية لا مناص منها، ولا يمكن التحرر من أحداثها. ولذلك فلا محل لبذل المحاولات للخروج من أية نكبة تنزل بنا أو مصيبة تحل بوادينا. وذلك ما نشأ عن انتشار الشاذلية في بلادنا مع سوء الفهم لصوفييتها الحقيقية. وقد ترتب على ذلك ازدهار شأن طبقة من المشايخ والمرابطين أصبحوا يملكون زمام الأمر في الأمة ويسيرونها في الاتجاه الذي يريدون، وساعد على تقوية نفوذهم أن الذين أسسوا الأسترتين المالكتين في المغرب الأسرة السعدية، والأسرة العلوية الحالية استعانوا إلى حد كبير بمشايخ الطرق حتى أصبحوا الواسطة في حكمهم للناس، وهذا ما أدى إلى ضعف الدولة وتوزع سلطتها بين ذوي الاقطاع المرابطين أو الحكوميين.

لمس هذه الآثار جميعها السلطان سليمان في مملكته، كما لمسها في الجزائر المجاورة لها، ورأى الأتراك يستغلونها لاستمرار سلطتهم التعسفية في القطر الشقي، ففكر في الأمر جلياً ودعا إلى العودة للسلفية الأولى ومقاومة الطرق وتشعباتها واستجاب للروح الحنبلية

التي كان سلفه السلطان محمد بن عبد الله أول المعنيين بنشرها والدعوة إليها، حتى ألف كتابه «المسند» في جمع الأحاديث الصحيحة التي يمكن الاعتماد عليها في العقيدة والأعمال.

وهكذا تهيأ الجو الصالح في المغرب الرسمي لتأييد دعوة الزعيم النجدي حين تجاوزت أصداؤها على لسان الحجاج الذين كانوا يرجعون للمغرب بعد أداء الفريضة المقدسة، فيؤكدون لكل طهارة الدعوة وسلامة نية أصحابها. ثم اتصل سلطان المغرب نفسه، كما اتصل غيره من ملوك العالم الاسلامي بكتاب عبد الله بن سعود بعد استيلائه على الحرمين الشريفين يدعو فيه لاتباع مذهبه والتمسك بدعوته، وقد بعث السلطان ولده ابراهيم بن سليمان إلى الحجاز لأداء فريضة الحج سنة ست وعشرين ومائتين وألف، مستصحباً جواب السلطان الذي يؤكد فيه التجاوب الحاصل بين شعور مختلف أنحاء العالم الاسلامي بضرورة بعث السنة وإحياء الدين. وبعد أن أتم الأمير المغربي سفارته رجع إلى البلاد مؤكداً في تقاريره أن الحركة الوهابية ليست شيئاً غير ما يرمي إليه المصلحون من تطهير العقيدة وتطبيق الشريعة.

كان لهذه الرحلة الاستطلاعية أثرها في تشجيع المولى سليمان على مواصلة كفاحه ضد المتمشخين والمفتقرة، كما يسميهم، فظل يوجه الرسائل لتقرأ على المنابر في سائر مساجد المغرب يتحدث فيها عن متصوفة الوقت ويحذر الناس فيها من الخروج عن السنة والتغالي في البدعة، كما يشرح آداب زيارة الأولياء ويحذر من تغالي العوام في ذلك مغلظاً القول فيه.

ومما جاء في هذه الرسائل - على ما نقله صاحب «الاستقصا» -: «من الغلو البعيد ابتهال أهل مراكش بسبعة رجال؛ فعلينا أن نفتدي بسبعة رجال ولا نتخذهم آلهة لثلاث يؤول الحال فيهم الى ما آل في يغوث ويعوق ونسر». وقد ألف المولى سليمان عدة رسائل في هذا المعنى، ومن ضمنها رسالة كبرى في إرشاد الحجاج لآداب الحج والزيارة وعدم الغلو والابتداع فيهما، وقد سبق لحزبنا أن طبع مجموعة رسائل السلطان مولاي سليمان ونشرها على الناس.

واصل جميع الملوك الذين تعاقبوا على عرش المغرب الدعوة إلى السلفية في كل تصرفاتهم، ولكنهم لم يستطيعوا في الواقع أكثر من التخفيف من وطأة الخرافة على العلماء ورجال الدين، ولعل ذلك راجع لكونهم لم يتعدوا فيما فعلوه أسلوب الوعظ والارشاد ومنع بعض المواسم التي كانت تتسم بالمغالاة، مع أن الوعظ لا يكفي وحده في إصلاح ما أفسدته الأجيال؛ لأنه يوجه النداء للوجدان، بينما يبيع الذين يستغلون الدين لأغراضهم الشخصية ضيائهم وينبذون وجدانهم، وعلى كل حال فقد كانت الحركة السليمانية بداية قومية لتنبية الوعي الاسلامي والاجتماعي في نفوس المغاربة أجمعين، وقد جددت أحداث

بعد ذلك حولت الانتباه الشعبي والحكومي إلى الجوانب السياسية والعسكرية، خصوصاً بعد انهزام الجيش المغربي في موقعة «إيسلي» وهي الموقعة التي ذهب فيها جيشنا بقيادة محمد بن عبد الرحمن لإنقاذ إخواننا الجزائريين بعد هجوم الفرنسيين عليهم واحتلالهم للجزائر، فقد كان لهذا الانهزام أثره في حمل المغاربة على محاسبة أنفسهم واقتناعهم بضرورة العناية بالتجديد العسكري والاجتماعي. وقد ألف أحد علماء المغرب في ذلك العصر كتاباً ساه «كشف الغمة في أن الحرب النظامية واجبة على هذه الأمة»، كما تحدث كثير من الشعراء والأدباء عن أسباب انهزام المغاربة في هذه الموقعة وردوا ذلك إلى أن الأوروبيين تطوروا في أساليبهم العامة بينما نحن مازلنا نواصل الأساليب العتيقة في جهادنا وفي تدبيرنا، وأوصلهم ذلك إلى البحث عن حيوية الاسلام وكونه الدين الصالح لكل زمان ومكان، وخلص بهم إلى تحليل أسباب هذا الجمود الفكري والجمود العلمي المنتشرين في أوساطنا، وهكذا التقى هؤلاء المخلصون بنقطة البداية للحركة السلفية الأولى وهي ضرورة العودة بالأمة إلى ما كانت عليه في عهد سلفها الصالح من تمسك بالدين وعمل بمقتضياته ومن تنوير للأذهان حتى تفهم الدين على حقيقته وتسير وفق طبيعته وخطته.

وطبّعى أن يتشعب هذا الجانب فتظهر في البلاد لأول مرة حركة أدبية تؤسس أول مطبعة في المغرب، كما تظهر حركة اقتصادية تعمل على إغناء أمتنا عن الشراء من الأجانب الذين جاءوا لمهاجمتنا في عقر دارنا.

والحقيقة أن حركة الأفكار هذه اشتملت على كل عروق النهضة الجديدة التي نحسب اليوم أنها جاءتنا من أوروبا وبواسطتها، مع أن كل ما فعلته أوروبا بنا هو محاولة إقناعنا بضرورة الأخذ بما نريد من أسباب التقدم والتطور في دائرة خارجة عن الدين.

وازدهرت في أوائل هذا القرن حركة الدعوة للسلفية في البلاد العربية وساهمت المطبعة في نشر كثير من كتب المصلحين الأولين أمثال ابن تيمية وابن القيم والشاطبي وابن الحاج وغيرهم من رجال الإصلاح الديني في المشرق والمغرب، فأحدث ذلك مفعولاً في وطننا وانتقلت الدعوة من يد الحكومة أو الملك إلى يد النخبة المخلصة من علماء الأمة ورجالها، فكان أول شخص تصدى من أبناء قومنا لنشر دعوة كاملة للسلفية في هذا العهد هو الشيخ عبد الله السنوسي، وهو واحد من علماء القرويين سافر إلى المشرق واتصل بأقطاب هذه الدعوة في مصر والحجاز وتأثر بهم واقتنع بأفكارهم وعاد للمغرب ليصدع بدعوته في داخل الجامعة القروية وليجمع من حوله ثلة من الطلبة والأنصار، وبما أنه كان شديداً في دعوته قويا في خطابته مؤملاً في حجته فقد ألّب عليه جماعة من العلماء اتهموه بما يتهم به عادة كل مخلص وكل مصلح، حتى كتبوا في شأنه رسالة رفعوها إلى السلطان مولاي الحسن يطالبون فيها بفصله من كرسي الجامعة ويحكمون عليه بالابتعاد والخروج عن

المألف، ولكن هذه الرسالة لم تجد أذنًا واعية عند السلطان، بل تكفل الملك نفسه بالتعليق عليها بخطه، مؤكداً للعلماء أن ما يدعو إليه الشيخ السنوسي هو ما يتفق مع الاسلام الصحيح والسنة الطاهرة، وهكذا حمى الملك المغربي الداعية السلفية ليوصل عمله في تنوير العقول وتطهير النفوس. وقد تتلمذ عليه الكثيرون ممن واصلوا العمل بفكرته من بعده^(١).

ثم بزغ في الشرق موقظه الكبير جمال الدين الأفغاني فأخذت السلفية على يده صبغة جديدة تتسم بطابع الشمول لكل جوانب الفكر والروح والعمل، وأصبحت تهتم بالبناء إلى جانب اهتمامها بالهدم، وتبلورت في دعوة قوامها التجديد المطلق لكل مظاهر الحياة الاسلامية للعقل والدين والعلم والأسلوب وطريقة المعاش والحكم وغير ذلك من النواحي. وقد تخرج على يد جمال علماء أفذاذ ومصلحون عظماء انبثوا في كل الانحاء من الهند إلى مصر برز من بينهم في العالم العربي محمد عبده الذي أصبحت المدرسة السلفية تحمل اسمه وكأنه المستحق لها من بين سائر الوارثين.

ولكن الجانب السياسي طغى على المدرسة السلفية في مصر والعالم العربي، بينما طغى الجانب الاجتماعي والعقل على هذه المدرسة في بلاد الهند، أما المغرب فقد تأثر بكلتا المدرستين وأصبح تتجاذبه عوامل الجهتين وإن كانت فكرة واحدة قوامها التحرر والتجدد. وسنرى إلى أي مدى تطورت السلفية في بلادنا بعد الفراغ من العرض التاريخي.

لقد وصلت مجلة «العروة الوثقى» وكتب جمال الدين وعبداه وآثار المصلحين السلفيين في الهند إلى مراكز وللاوساط الجامعية منها بصفة خاصة، وأصبحت موضع التعليق والقبول والرد من مختلف الجماعات والأفراد، ولكن الكل أصبح يشعر بهبة جديدة ترد من المشرق وتتفاعل مع حاجاته التي يحى بها ومع الدعوات المدنية التي تنبثق أيضاً في عاصمة الدولة العثمانية وحركات التحرر التي تؤيدها أوروبا تارة وتعارضها أخرى حسب مصالحها.

ولئن كانت التفاصيل موضع الاختلاف والجدل فالمهم أن الموضوع قد طرح على بساط البحث وأصبح الشغل الشاغل لكل النفوس، وسرعان ما تعدى هذا الاتصال طور الملاحظة والتعليق وأصبح ارتباطاً وتراسلاً بين النخبة من المغاربة وبين هيئات الدعوة في المشرق. وإذا لم يكن قد تيسر للشيخ محمد عبده أن يصل إلى المغرب الأقصى بعد أن زار تونس والجزائر وألقى فيهما دروسه التي مايزال صداها يرن في مساجد القطرين الشقيقتين فقد تمت المراسلة بين المصلح المصري وبين علماء البلاد ورجالها؟ فقد كتب

(١) من الذين تتلمذوا عليه في المغرب أستاذنا الكبير الشيخ محمد بن العربي العلوي ، ومن تلامذته في مصر الأستاذ المحدث الكبير الشيخ أحمد محمد شاكر .

الشيخ عبده حينما عزم على نشر أنقى الكتب الاسلامية الأولى إلى الملك الشاب عبر العزيز وإلى الشريف مولاي ادريس بن عبد الهادي صاحب أكبر مكتبة خاصة في عهده يطلب منها إرشاده لبعض أمهات الكتب الفقهية، وحينما قامت الضجة على عبده في قضية الفتوى الترنسفالية المتعلقة بذبائح أهل الكتاب تصدى مفتي فاس الشيخ المهدي الوزاني فألف رسالة يؤيد فيها وجهة نظر مفتي القاهرة.

وقد تفاعلت آثار هذه الاتصالات والمناقشات مع غيرها من العوامل الداخلية والخارجية في نفوس الذين قاموا بالثورة الحفيفية في المغرب الأقصى تلك الثورة التي كانت ترمى للتحرر من التزامات السلطان عبد العزيز نحو فرنسا. وبمجرد ما استقر الأمر لعبد الحفيظ بدأ يسير في النهج الذي تعمل له السلفية في ذلك الوقت، فقد تصدى بنفسه لمقاومة الطرق والزوايا بكيفية لم يسبق لها نظير من قبل، إذ ألف رسائل عديدة في بيان البدع التي تشتمل عليها تقاليد الطرق والزوايا؛ من أهمها رسالته في الرد على التيجانيين، وجمع من حوله نخبة من العلماء الذين تأثروا كثيراً بأفكاره كالشيخ الخضر الشنقيطي والشيخ أبي شعيب الدكالي وغيرهما من العلماء، كما قام بتأسيس مطبعة في مدينة فاس أخذت تخرج أهم الكتب الدينية والأدبية، وحرص على أن تصدر بصفة خاصة كتب الحديث والتفسير التي ألفها علماء سلفيون مغاربة أمثال «المشارق» للقاضي عياض، و«أحكام القرآن» لابن العربي، و«بداية المجتهد» لابن رشد وغيرها من أحسن ما أنتجه رجال العلم الأحرار من قومنا، واتخذ العدة لتنفيذ أعمال جلية في إصلاح برامج التعليم وتعميمه، وفي العناية بالبنيت المسلمة وتكوين دستور جديد للحكم وغير ذلك من الأمور التي كانت الأمة تنشدها وكان تطبيقها في أرض الخلافة العثمانية يشجع عليها.

ولكن الهجوم الفرنسي على البلاد ودسائس الفرنسيين في استعمال بعض مشايخ الطرق وبعض آل البيت قلب سلم هذه الحركة إلى عنف شديد اضطرم معه عبد الحفيظ إلى إقفال الزاوية الكتانية وإلى الحكم على رئيسها بالاعدام وتنفيذه، كما اضطرم إلى اعتقال بعض المشايخ الآخرين وإلى إصدار رسائل شديدة في الحكم على التيجانيين وغيرهم من رجال الطرق. وهكذا ضاعت هذه الحركة الأولى في جو التطاحن السياسي كما أراده الفرنسيون وأذناهم.

على أن التدخل الفرنسي لم يمنع من أن يقوم رجال شعبيون بالعمل على مواصلة نشر السلفية وبث مبادئها في النفوس، بل إنها أصبحت منذ الساعة في نظر النخبة المثقفة المنار الوحيد الذي يمكن أن يهدي الأمة لسبيل خلاصها.

وقد حمل مشعل الإصلاح السلفي كل من الشيخ أبي شعيب الدكالي وشيخنا محمد بن العربي العلوي. وقد أقام الأول في الرباط بينما أقام الثاني في فاس، وأثر كل منهما في أكبر عدد ممكن من التلاميذ والأنصار الذين كانوا يفدون من كل الجهات لاستماع

دروسهما القيمة وأحاديثهما الممتعة، وقد وهبهما الله من العلم والفصاحة ما وطأ لها أكناف العمل الذي نصبنا نفسيهما لخدمته، وسرعان ما تكونت من حولهما نخبة من المتنورين الذين نقلوا الفكرة إلى ميدان التطبيق فأخذوا يطوفون في البلاد ناشرين الدعوة منادين بها هادمين لكل الأصنام مقتلعين كل الأنصاب.

نظر الشعب أولاً نظرة التحفظ لهذه الفكرة التي تقوم على إنكار كثير مما ألفه الناس وتعودوه من المواسم وما يقام فيها من ذبائح ونذر مما يعده السابقون مظهراً من مظاهر الاحترام للشعائر والمحافظة على الرسوم، حتى قرعت الحرب الريفية آذانهم فنبهت أبصارهم وبصائرهم لرؤية حقائق طالما تجاهلوها، فالتفتوا وإذا بأشهر مشاهير المشايخ الذين يستغلون الدين والتصوف لأغراضهم الشخصية قد انضموا لصفوف الفرنسيين والأسبان وأخذوا يوجهون الرسائل المختلفة ينادون بها القبائل المكافحة في سبيل الله والوطن إلى العدول عن الجهاد والاستسلام للأعداء. رأى الناس هذا بأعينهم ولسوه بأنفسهم فأصبح الكل مؤمناً بأن الدين والصلاح والتصوف بريء من هؤلاء المتمشixin. وهكذا سجلت السلفية انتصارها الاجمالي بانتصار سمعة دعائها وسقوط خصومها، وأصبح الميدان واسعاً للذين يريدون العمل في سبيل توسيع الجهد السلفي مقرّوناً بما يتطلبه العصر من حركة سياسية واجتماعية كبرى.

لكن عاملاً آخر ازداد في الميدان هو انكشاف السياسة الفرنسية وتبين وجهها الصحيح؛ فقد تنمر الفرنسيون بمجرد نهاية الحرب الريفية للإسلام، وأخذوا يعملون على مقاومة الشريعة الاسلامية بكل ما تعنيه هذه الكلمة من معنى، ووضعوا المناهج الرسمية العلنية لفرنسة المغرب عن طريق تمسيحه، وصدر المرسوم البربري في 16 مايو 1930 فتقدمنا نحن الذين كنا جنود السلفية وأعوانها للقيام برد الفعل العظيم الذي قاوم الخطر الماس بالدين في الصميم، وإذا بنا في حركة سلفية ووطنية في وقت واحد؛ هي سلفية لأنها تريد إقرار الشرع الاسلامي وتثبيت دعائمه في البلاد، وهي وطنية لأنها تقاوم السيطرة الأجنبية وكل برامجها للامتلاك الأبدي لبلادنا.

تكشفت المعارك بيننا وبين الفرنسيين عن فكرة جديدة هي لون طريف من ألوان السلفية؛ يتناول الكفاح في كل الجوانب الأدبية والثقافية والاجتماعية التي يتطلبها إنشاء كيان خاص لطائفة إسلامية تؤمن بالله وبالتقدم والحرية. وهذه الجوانب هي التي اشتمل عليها نشاطنا في دائرة الحركة الوطنية تتميماً لما أبداه من قبلنا من الزعماء والعلماء المغاربة :

1 - فمن أجل العمل لتطهير العقيدة كانت المدة التي استغرقت الحرب الريفية ميداناً لدعاية يقطعة في هذا المعنى؛ إذ واصلت النخبة المغربية نشر فصولها السلفية ومحااجة خصومها في صحف تونس والجزائر والمغرب خاصة مجلة «الشهاب» التي كان يصدرها صديقي المرحوم الشيخ عبد الحميد بن باديس الذي يرجع له الفضل في تأسيس جمعية

العلماء المسلمين بالجزائر، وإلى جانب ذلك ألف عديد من أصدقائنا مؤلفات في شرح بدعية الأساليب الطرقية المتبعة عندنا، ولكن القسط الأكبر من هذه الدعاية كان يتوجه لفضح الخيانات التي يقوم بها الطرقيون في المغرب، وبذلك أصبحت هذه الحركة بمثابة عمل مواز للكفاح الذي قام به المجاهدون في الجبال في سبيل تحريرهم من سيطرة الاستعمار، وساعد على نجاح هذه الدعوة مقاومة الفرنسيين لها واعتقالهم الكثير من رجالها وتهديدهم للآخرين. وإن أنس فلا أنسى حديثاً جري لي مع القومندان (أودينو) حينما استدعاني صحبة الأخوين الأستاذين الكبيرين (محمد غازي) و(العابد الفاسي) لإدارة الأمور الأهلية بفاس، فهددنا وحذرنا من الاستمرار في مقاومة المشايخ وصرح لنا بما يأتي: «إننا نعلم أنكم لا تقاومون عبد الحجي الكتاني وعبد الرحمن الدرقاوي وأمثالهما من المشايخ إلا لأنهم أحببنا، وقد علمتم أنهم تحالفوا معنا في أخرج المواقف ضد عبد الكريم وأضرابه من الثوار، فلا يمكننا إلا أن ندافع عنهم ونكون في صفوفهم ضدكم الآن».

ولكن هذا التحالف لم يزد الإصلاح الديني إلا قوة، ولا رجاله إلا نشاطاً فقد أيدهم القصر منذ أن تربع على عرشه السلطان الحالي الملك المصلح سيدي محمد الخامس، فأصبح من أشد دعاة السلفية وأنصارها، وقد بذل في نصرها كل ما يستطيعه من جهد ومن نفوذ، كما أصبح العلماء كلهم متفقين على ضرورة محو كل مظاهر الجمود والجحود التي تشهرها طرق خرافية عفى الدهر على وقتها، فأصبحت الرسائل والفتاوي توجه من جامعة القرويين وغيرها من المعاهد الدينية تطلب من الملك اتخاذ القرارات الحاسمة ضد كثير من المظاهرات الطرقية التي تقام باسم الدين وهي مليئة بالبدع والمنكرات.

وسرعان ما صدرت عدة أوامر ملكية بمنع خروج رجال الطوائف العيساوية والحمدوشية على الصفة التي كانوا يخرجون عليها، ثم منع إقامة مواسمهم إلا في أضيق دائرة ممكنة وتحريم النحائر التي تقدم للصالحين في مختلف المناسبات التي تحمي فيها ذكراهم بكيفية لا يرضون عنها، وانتشرت الدعوة في الأوساط الشعبية إلى حد أن الأمة بدأت تقيم الأفراح وتزين الأسواق كلما صدر مرسوم ملكي بمنع بدعة من هذه البدع ومحوها من الوجود، وعلى الرغم من المحاولات التي بذلتها الإدارة الفرنسية بخلق حركة رجعية أو المشاغبة على هذه الأعمال الإصلاحية فإن استجابة الأمة لدعوة الإصلاح كانت تعفي على كل الدسائس والأغراض، بل إن الدعوة تسربت حتى إلى كثير من من رجال الطرق المخلصين فقرروا العدول عن بعض البدع التي تبين لهم أنها ليست من الدين ولا من الطريقة في شيء، فأصدرت الطريقة التيجانية تعليمات بمنع الرقص في زواياها وفعلت مثل ذلك الطريقة الخلوتية بفاس مكتفية بقراءة أورادها في صمت وهدوء.

وتبع هذا الإصلاح بالطبع تجديد في أسلوب الوعظ والخطابة الدينية فاستفادت اللغة العربية منه وانبعثت الأحاديث الصحيحة وأخبار السلف النقية من مرقدها لتحل محل

الخرافات والمناقب التي كان الوعاظ يغربون في جمعها وابتكارها تملقاً للجمهور وتحبباً للناس .

وقامت حركتنا الوطنية بتأسيس جمعيات المحافظة على القرآن الكريم فتوصلت بذلك إلى إبطال الخلاف في القراءة بالمساجد في يوم الجمعة وتوحيد القراء بصوت واحد، وكان الناس عادة يدخلون المسجد فيأخذ كل واحد منهم مصحفاً أو كتاب صلوات وأدعية يقرأ فيه على انفراد بصوت مسموع وذلك ما يتنافى مع آداب القراءة والوحدة التي ينشدها الإسلام في كل شيء .

ولعلكم تستغربون أيها الاخوان إذا قلت لكم إن هذا الإصلاح البسيط لم يرض الفرنسيين بل تدخلوا في مقاومته إلى حد أنهم ساقوا الجند على المصلين في مدينة (تازة)، وهاجموا المسجد الكبير بها بدعوى حماية الذين اعتادوا قراءة «دليل الخيرات» ومقاومة أعضاء جماعة المحافظة على القرآن واعتقالهم، ولكن ذلك لم يمنع هذه الحركة الصغيرة من مواصلة أعمالها إذ أسست في كل المساجد خزائن ملأتها بالمصاحف ودعت الكل لتوحيد القراءة فلبى . ونتج عن ذلك تأسيس (الإملات القرآنية)، وهي مجالس يتلقى فيها الكبار من العوام آيات القرآن وسوره يحفظونها ويتدارسون معانيها مكان ما كانوا يفعلونه بالأوراد والأدعية المختلفة .

وقامت هذه الجماعة كذلك بالدعوة الى التجويد في القراءة والعناية بطبع المصاحف على صفة متقنة وغير ذلك من فروع نشاطها الديني العظيم . وقد لعبت جمعيات المحافظين على القرآن الكريم دوراً مهماً في نشر الحركة الوطنية في المغرب الأقصى لأنها كانت خير دعاية عرّفت الأمة قيمة الوطنيين وما يريدون للبلاد من خير ونجاح .

2 - وإلى جانب الاعتقاد كان للحركة السلفية فضل البداية بتجديد أساليب التعليم، فأسست في مدينتي فاس والرباط المراكز النموذجية الأولى للمدراس القرآنية المجددة، وأقبلت النخبة على الاقتداء بدعاة السلفيين فأسست هي الأخرى مدارس حرة تقوم على تطبيق برامج عصرية مصحوبة بالتعليم الديني والقرآني، وعلى الرغم من غضب السلطات الفرنسية على هذا العمل الجليل فقد واصل المصلحون جهودهم حتى انتشرت هذه المدارس في مختلف المدن والقرى، وكان لها فضل المحافظة على تعاليم الاسلام ولغة القرآن في نفس الأجيال الجديدة من الشباب .

وقامت الحركة السلفية من أول يوم بالدعوة إلى تجديد أسلوب الدراسة في جامعة القرويين والمعاهد الدينية، وطالبت بتنظيمها وإدخال فروع من المعرفة على برامجها . ولقد كان لنا، ونحن طلبة، شرف الكفاح القوي في سبيل الوصول لتنظيم القرويين، وكنا نجد دائماً معارضة كبيرة من بعض المدرسين ومن الادارة الفرنسية، ولكن الثبات يؤدي دائماً

للتنتيجة المطلوبة. وفعلا حصلنا سنة 1930 على إصدار مرسوم ملكي بتنظيم القرويين وتقسيم التعليم فيها وفي المعاهد الأخرى إلى أقسام ابتدائية وثانوية وعليا، وتقسيم هذا الأخير إلى قسمين قسم الآداب وقسم الدين، وأضيفت سائر العلوم التي كان الدهر عفى عليها في الجامعة من آداب وتاريخ وجغرافيا وفلك وغيرها مما تتوقف عليه المعرفة إلى برامجهما.

أظهر جلالة السلطان عناية كبيرة بالقرويين وانتدب لها شخصاً يشرف على تطبيق هذا الإصلاح بصفة جدية بعد أن فشلت المحاولات السابقة منذ 1914 وهذا الشخص هو صديقنا الأستاذ (محمد الفاسي) مدير القرويين المعتقل أخيراً أطلق الله سراحه. وقد قام الأستاذ الفاسي بعمل جبار في تطوير القرويين وجعلها جامعة عصرية مع الاحتفاظ لها بالطابع الديني المفيد. وكلما قطع مرحلة وحاول أخرى وجد من عرقلة الفرنسيين ومقاومتهم ما ي عفى على مجهوده ومجهود معاونيه وتأييد الملك وحكومته له. وعلى إثر الأزمة المراكشية التي ابتدأت سنة 1951 أصدر الجنرال جوان مقيم فرنسا العام إذاك قراراً عسكرياً بإبعاده عن القرويين، ثم وقع اعتقاله مع قادة حزب الاستقلال في شهر ديسمبر الماضي على إثر الأزمة الأخيرة التي نعيش فيها الآن. ومهما يكن فقد أصبحت القرويين بفاس وجامع ابن يوسف بمراكش ومعهد مكناس ومعهد طنجة والمعهد العالي بتطوان تقوم بدور مهم في سبيل الثقافة الإسلامية على أحدث الطرق وأحسن الأساليب.

وقد أسست «جامعة القرويين» فرعاً نسائياً مستقلاً تتخصص فيه السيدات في العلوم الدينية للحصول على شهادة العالمية لأن الدين الاسلامي لا يفرق في طلب العلم بين رجل وامرأة.

وقام علماء الشباب بإلقاء دروس ليلية في مختلف المعاهد والمساجد يحضرها آلاف المؤمنين ليستمعوا الى تعاليم الدين في كل ما يتناول حاجة المجتمع العصري وجوانب النهوض فيه. ولكن ذلك لا يمر من غير تضحية كبيرة من هؤلاء العلماء الذين تهاجمهم السلطة الفرنسية في كل حين، فتلقي عليهم القبض وترج بهم في أعماق السجون بدعوى أنهم ينشرون التعصب ويقوّون روح العداء في المسلمين ضد المستعمرين.

لقد كنت في عداد ضحايا هذا التدخل الفرنسي؛ إذ أصدرت السلطات الفرنسية أمراً بتوقيف الدروس التي كنت ألقّيها في «جامعة القرويين» طيلة المدة التي بين سنتي 1930 و 1934 والتي كان يحضرها آلاف من الطلبة ومن رجال الشعب، وصدر هذا الأمر مباشرة من إدارة الأمور السياسية الفرنسية بعد أن فشلت أربعاً وعشرين مرة خلال هذه المدة في إقناع المجلس الأعلى للقرويين والمعاهد الدينية بالتدخل لتوقيف دروسي. ووقع مثل هذا بعد ذلك لصديقي الأستاذين الحسن أبي عياد وعبد العزيز بن إدريس، رد الله

غربته، ثم أصبح ذلك سنة تسير عليها الادارة الفرنسية كلما استنكرت نجاح أحد من رجال العلوم الاسلامية في دعوته وإقبال العامة عليه .

3 - الدفاع عن الدين : ولم تقف السلفية في مراكش عند هذا الحد من تنوير العقول وفسح المجال للتربية الاسلامية والارشاد الديني ولكنها قامت بعدة أعمال جلية في الدفاع عن الاسلام ورد مكائد الفرنسيين له ودفع كل ما بيتوه له من مصائب وبلايا . ومن الأمثلة في لك ما قامت به النخبة المغربية سنة 1930 من تعبئة عامة للشعب المراكشي ليدفع عن الأمة خطر السياسة البربرية التي كان مرسوم 16 مايو من هذه السنة أكبر مظاهرها .

وإذا كانت الحوادث قد أعطت لهذه الحركة صبغة سياسية خاصة، فمن الخيف وسوء التقدير أن نجهل الأسس العميقة التي بعثت عليها، ولكي نفهم ذلك ينبغي أن نشير بإيجاز إلى ما فصلناه في أبحاث خاصة من مرامي السياسة البربرية؛ فهي تقوم على أساس أن الأمة المغربية تتكون من فريقين أحدهما بربري والثاني عربي، وأن هذا الأخير فتح الأول واستعمره، وأن مهمة فرنسا في تحرير الأول من سيطرة الثاني الدينية واللغوية والقضائية ليصبح شاعراً بوجوده الخاص قادراً على أن يحفظ التوازن السياسي الذي يمكن فرنسا من البقاء الدائم في المغرب. ويجب بناءً على ذلك إقفال المحاكم الشرعية في جميع المناطق البربرية وإحلال مجالس عرفية محلها فيما يخص الشؤون المدنية والأحوال الشخصية، والرجوع رأساً إلى المحاكم الفرنسية فيما يتعلق بمسائل الجنح والجنابات، ويجب إقصاء اللغة العربية عن هذه المحاكم وكتابة عقودها وإجراءاتها بالفرنسية أو عند الضرورة باللغة البربرية مع استعمال الحروف اللاتينية، وإقصاء العربية كذلك عن جميع المدارس التي تؤسس لأبناء البربر، ويجب أيضاً أن يمنع في هذا المدارس تعليم الديانة الاسلامية بل حتى تعيين أساتذة مسلمين فيها، والحيلولة بين سكان المناطق البربرية وبين الاتصال بالمناطق العربية، وفسح المجال لرجال التبشير المسيحي ليقوموا بالدعوة للنصرانية مع تشجيعهم ومساعدتهم بمختلف الوسائل. وهكذا فإن الخطر المعجل المباشر للسياسة البربرية كان في محو الاسلام وإقصاء الشريعة الاسلامية واللغة العربية عن هذا القسم المهم من بلادنا. أما الخطر السياسي فلم يكن إلا عاقبة ثانية غير متيقنة لهذه المحاولات التبشيرية الفرنسية، وإذن فالبواعث الحقيقية التي دفعت الأمة المراكشية للثورة على هذه المؤامرات الاستعمارية لم تكن إلا في الدفاع عن الاسلام كدين وكملة، وعن الشريعة الاسلامية كقضاء وكمناهج، وعن اللغة العربية كأداة لوحدة التعبير عن الوجدان والتفاعل فيه بالرجوع إلى الاسلام النقي الطاهر والابتعاد عن العادات التي أصبحت موضع استغلال المستعمرين، والثورة للاحتفاظ بطابع المغرب الاسلامي، تلك هي البواعث السلفية التي جندت الشباب المغربي والأمة المراكشية وسائر العالم الاسلامي، لمقاومة السياسة البربرية، تلك المقاومة التي خلقت الحركة الوطنية

الاستقلالية التي تطورت أساليبها وتشعبت غاياتها دون أن تنبذ أبداً نقطة البداية التي علمتها. وهي دوام المغرب كأمة متحدة في العروبة والاسلام والاستقلال.

وإنكم تعلمون أيها الاخوان نبأ الكفاح العنيف الذي قامت به مراكز ضد السياسة البربرية منذ سنة 1930 فاهتز له العالم الاسلامي مؤيدا متضامنا وسجل الازهر في سبيله صفحات بيضاء من صفحات رجاله، كما سجل فيه شيخ الأزهر بصفته رئيس جمعية الهداية الاسلامية ومجلتها صفحات مشرقة كذلك ونشرت مجلة (الفتح) الغراء التي كان يصدرها أخونا الكبير الأستاذ محب الدين الخطيب فصولا ممتعة لمختلف المجاهدين العرب في ذلك الوقت.

ولكن الذي يجب أن تعلموه الآن هو أن فرنسا رغماً عن كل الجهود التي يبذلها العالم الاسلامي لاقناعها بضرورة الإقلاع عن هذا الاضطهاد الديني والثقافي للمسلمين في المغرب لم ترعو عن غيها ولم تتقهقر قيد أنملة عن خطتها، بل إنها تجمع اليوم الكثيرين من رجا الفكر الفرنسي ومن أقطاب الجامعيين الفرنسيين لتدرس معهم الوسائل الجديدة التي يمكن أن تتبعها لخلق سياسة بربرية جديدة تحقق لها ما لم يمكن تحقيقه بالأمس. وقد اعترف هؤلاء الخبراء بفشل السياسة البربرية الأولى من الناحية اللغوية والدينية ولكنهم أكدوا إمكان نجاحها من الجهة القانونية حيث إن القوة قد توصلت الى اقفال كل المحاكم الشرعية في قبائل البربر، وحيث إن الأعراف التي اصطنعتها الادارة الفرنسية لهذه القبائل أخذت تتطور نحو قانون مستقر يمكن أن ينقلب إلى قانون فرنسي يسيره قضاة فرنسيون، فالاتجاه اذن هو الى فُرْسَةِ المحاكم المغربية بصفة تدريجية في قبائل البربر ريثما يتم ذلك في البلاد المغربية بأسرها، وهكذا نرى أن الفرنسيين ما فتئوا يتجهون نحو القضاء على الشريعة الإسلامية كخطوة أولى لإقرار المحاكم الفرنسية وجعل المغاربة من اختصاص القضاء الفرنسيين. وحيث إن هذه المحاكم لا تستعمل إلا اللغة الفرنسية فستصل عن طريقها الى القضاء على العربية على الأقل في القضاء وما يسبقه من معاملات وتعاققات. هذا الى الأساليب الأخرى المتبعة في سبيل الفرنسة والتمسيح والتي لا يتخلل عنها هؤلاء الخبراء ولو أنهم اعترفوا بفشلها.

والمؤلم أن هذه السياسة الفرنسية تلاقي صدى كبيراً في نفوس الانجليز والأمريكيين حيث إن مندوب أمريكا في الأمم المتحدة لم يتورع عن استعمالها كحجة على وجود عنصرين متميزين في المغرب، داعياً الأمم المتحدة الى مراعاة اختلافهما عند التوصية التي يمكن أن تصدرها في شأن القضية المغربية، وذلك ما يثبت بحق صليبية الفرنسيين وحلفائهم في موقفهم العدائي للمغرب المسلم.

ومن الأمثلة على أنواع الكفاح الذي أملته الروح السلفية في مراكز الجهود التي بذلناها لتنظيم المحاكم الشرعية وتجديد أساليبها حتى تصبح قادرة على مسايرة مقتضيات

العصر ومزاحمة ما ينشئه الاستعمار من محاكم عرفية وفرنسية . ولكن الفرنسيين لا يعارضون في شيء ما يعارضون في تنظيم المحاكم الشرعية وفي تجديدها، ذلك لأنهم يرون فيها عدوهم الأكبر الذي يمكن أن يعفى على كل آمالهم في الاستعمار القضائي الذي هو هو كما قال (لوسيان سان) سبيل فرنسا لإدماج الشعوب وابتلاعها، ومع أن الفرنسيين يعلمون أن حالة المحاكم المغربية عموماً لا يمكن أن تبقى على ما هي عليه الآن فإنهم يريدون كسب الوقت إلى أن يحين اليوم الذي يصبح فيه الجو صالحاً لقبول المحاكم الفرنسية أو على الأقل لقبول القانون الفرنسي كحل لمشكلة القضاء في البلاد، الأمر الذي يتم فيه الاستعمار الفكري الفرنسي الذي هو أشد على الوطن من استعمار فرنسا المادي .

من هذه الأمثلة أيضاً الجهود التي بذلناها سنة 1933 وما بعدها للمطالبة بتحرير الأوقاف الاسلامية من سيطرة الرقابة الفرنسية، وقد قدم الشعب في ذلك عدة عرائض ومذكرات حملتها وفود للقصر الملكي وللإقامة العامة الفرنسية، وقد تجاوزت هذه الحركة مع مثيلاتها في الوقت نفسه في سوريا وفلسطين، ولكن النتيجة لم تكن إيجابية أيضاً، فما تزال الأوقاف الاسلامية تحت سيطرة الرقابة الفرنسية، وما تزال المساجد ورجالها موضع التحكم الفرنسي، وذلك ما يحول بين الولاية المغربية وبين أداء كثير من الواجبات التي يريدون القيام بها كتأسيس بعض المدارس ومراكز الإسعاف وغيرها مما يمكن للأوقاف أن تقدمه للطائفة الاسلامية .

إخواني وسادتي :

كل هذه الأعمال التي فصلناها للسلفية في المغرب الأقصى كانت قبل الحرب الكبرى الأخيرة، أما هذه الحرب فقد أحدثت أثرها في هذا الميدان كما أحدثته في غيره، ذلك أن السلطات الفرنسية التي شجعت الطريقة في عهد المقاومة المسلحة المغربية لأنها كانت تجد من أغلب المشايخ تأييداً وعضداً لم يعد يهمها من أمرهم شيء، بعد أن تم لها الاحتلال العسكري الكامل لكل أنحاء البلاد سنة 1934 بل إنها قلبت لذوي الشخصية البارزة منهم ظهر المجن، إذ هي تعرف أن تأييدهم لها لم يكن طبعياً ولا متفقاً مع العقيدة الدينية التي ينتسبون إليها، ولم تستثن من ذلك إلا فردين هما عبد الحى الكتاني والحبيب الفلالي؛ فقد احتفظت معها برابطة متينة لأنها كانت تعلم بغض الامة لها وأنها غير قادرين على التجول في أية بقعة من البلاد بغير حماية الفرنسيين وفي الوقت نفسه كانت تعلم أنها كاملاً الارتداد لا يتأخران عن بذل أي تصريح لتأييدها في أي وقت كان . وحينما حلت الحرب الكبرى لم تجد فيها غناء ولم يجدها اتصالاً بها شيئاً يذكر؛ فاضطرت إلى أن تخلق من جديد مشايخ يستكتبون لها المتطوعين في الجيش لتأييد حكومة فيشي . وهكذا أسست طريقة سمتها الطريقة العالية يرأسها شخص اسمه عبد العالي، أمدهت بكل ما يمكن من

المال لبناء زاويتين كبيرتين بالرباط والدار البيضاء، كما حاولت اصطناع غيره من أمثاله فهاجت السلفية حينئذ وتقدمت لتشرح للشعب حقيقة الحال، وقام جلالة الملك قومة المؤمن المخلص بمجرد ما علم استغلال عبد العالي هذا للدين والتصوف في سبيل خدمة غايات استعمارية بغیضة، وانتهى الأمر بأن أصدر جلال السلطان أوامره للمحكمة الشرعية بالرباط لتنظر في شأن عبد العالي المذكور، وبعد ان استعملت المحكمة كل الاجراءات الشرعية أصدرت قرارها بضرورة إقفال الزوايا العالية واستتابة رئيسها من دعاواه الخرافية، وأرسل جلالة الملك الأمر لباشا الرباط فأقفل الزاوية العالية كما أقفل باشا البيضاء الزاوية الأخرى.

ثم أصدر جلالة السلطان مرسوماً يقضي بمنع تأسيس أية طريقة جديدة بغير إذن جلالته الخاص وعدم جواز إعطاء هذا الاذن إلا بشروط تدخل في إطار ما اشترطه العلماء والشيوخ المريدون، كما يقتضي هذا المرسوم منع شيوخ الطرق الموجودين من تأسيس أية زاوية بغير إذن جلالته. وقد أدى صدور هذا المرسوم سنة 1946 الى قيام أزمة شديدة بين الاقامة العامة الفرنسية والقصر الملكي، ولكن جلالته صمم على تطبيق المرسوم على الرغم من رفض السلطة الفرنسية نشره في الجريدة الرسمية المغربية.

ولم يقف الأمر بالسلطات الفرنسية عند عرقلة الاصلاح الذي قصد به الملك حماية الدين من أدياء الطرق والتصاق الخونة بها، ولكنها أخذت تتحداهم في مختلف الجهات لدرجة اضطر معها جلالته واضطرت الحركة الوطنية الى أعمال جريئة في مقاومة البدع المتحالفة مع الاستعمار.

ومن الحوادث التي تدل على مقدار الاستهزاء الفرنسي بشؤون الدين ومحاولة استغلال الفرنسيين لعاطفة التدين في نفوس المغاربة في سبيل أغراضهم الشخصية والمالية أن مراقباً فرنسياً بمدينة (افران) وهي إحدى مراكز الاصطياف الجميلة في المغرب أراد أن يركز السكان المغاربة الموجودين في الناحية في حي قريب من المدينة الأوروبية التي أسست حديثاً فرأى من الضروري تأسيس زاوية ومقبرة تتقرب من حولها قرية جديدة فجهز القبيلة كلها لبناء هذه الزاوية والمقبرة، وبعد أن أتم بناؤهما على أفخم ما يكون، فكر في أن الاقبال على الدفن بالمقبرة لن يقع إلا إذا كانت تضم وفاة واحد من أولياء الله الذين يمكن اعتقاد القبيلة في بركتهم، وحيث إن الأولياء قلائل في هذا العصر، فقد انتظر حتى مات أحد الشواش (الفراشين) بالادارة الفرنسية فأقام له جنازة كبرى ودفنه في الضريح وبنى عليه قبة ضخمة وعمده باسم (أبي دقيق) وكلف من يكتب عن مناقبه رسالة وزعها في القبيلة ثم أرغمها على أن تقيم له مولداً تذبج فيه الذبائح وتهدي النذور، كل ذلك ليحمل المغاربة على الدفن في الضريح ثم اشتراء الاراضي المجاورة له والتي هي ملك إحدى الشركات الفرنسية.

وقد انزعجت القبيلة لهذه الأساليب وتوجه وفد من السلفيين بها الى جلالة الملك يخبرونه بتفاصيل الأمر فانتقل جلالتة بنفسه لعين المكان وتأكد من صدق ما روى له الوفد السلفي، ثم استدعى قائد القبيلة وكلفه بالتوجه في نفر من أعوانه لهدم الضريح، وهكذا كان. فما أصبح الصباح حتى وجد المراقب صنمه قد هدم، ولم تستطع الاقامة العامة التي اشتكى لها المراقب إلا أن تتقهقر إزاء موقف جلالة الملك الصارم في حماية الدين وصد من يناوئونه من المستعمرين.

وكانت الادارة الدولية في طنجة تستغل موسم السيد البقالي المعروف بأبي عراقية لتقيم باسم الدين معرضاً لأنواع المخازي والفضائح الخلقية والاجتماعية معتبرة ذلك وسيلة من وسائل الدعاية للمدينة وجلب السائحين اليها، وعبثاً حاول إخواننا الوطنيون أن يحولوا الموسم الى مهرجان لفائدة التعليم، ولكن السلطة الدولية أبت إلا أن توجهه الوجهة التي تريد، وبمجرد وصولي لطنجة سنة 1948 دعوت الأمة الى مقاطعة هذا الموسم الذي أصبح زيادة على ما يشتمل عليه من البدع أداة لدعاية الاستعمار ضد الاسلام والمسلمين، فاستجابت الأمة ولم يقيم الموسم غير المسيحيين واليهود تحت إشراف الادارة الدولية. فكتبت في جريدة (العلم) مقالا بعنوان (تأميم الذبائح والقرايين في طنجة) كان له صدى في لجنة المراقبة الدولية التي هددت بمنع الجريدة من دخول المدينة، وحينما دار الحول وجهت النداء مرة أخرى فاستجابت الأمة أيضاً وامتنعت الادارة هذه المرة من أن تعرض نفسها لتهمة تأميم الذبائح، وبذلك قضى على مظهر من مظاهر خرافة متحالفة مع الاستعمار.

وطبعي أيها الاخوان أن تصبح السلفية متحالفة مع الحركة الاستقلالية في البلاد، وأن يعتبر الوطنيون المخلصون العمل لتطهير التقاليد الاسلامية من الخرافات خير سبيل لتجديد معالم الحياة الاسلامية في الوطن. وقد خرجنا من هذه الحرب والحركة السياسية والاجتماعية تعمل عملها في سبيل تعبئة الأمة للتكتل في الكفاح من أجل التحرر من نير الاستعباد، ونظرنا فوجدنا أن الأمة قامت في الماضي على جهاز اجتماعي قوامه القبيلة، والمرابطة، والمنظمات الاحترافية، إن هذا الجهاز أصبح عديم الجدوى في العصر الحديث بسبب ما أدت اليه القبيلة من تفريق في الأمة، وما وطدت له المرابطة من خرافة واستسلام، وبسبب الانحلال الذي أصاب الحرف المهنية التي لم تعد قادرة على أن تماشي حاجة المجتمع الاقتصادي الجديد. وفكرنا في ضرورة إحلال المسجد محل الرباط كما هو الأصل الاصيل في الاسلام، والوطن محل القبيلة، والنقابة محل المنظمة المهنية وأصبح ثمة كفاح داخلي يشتمل على كل هذه الجوانب التي تعد السلفية الجديدة عاملاً فعالاً في جزء مهم منها، وأصبح الفرنسيون ينظرون لحزب الاستقلال على أنه الممثل لحركة التجدد الاسلامي التي بدأها في الشرق محمد بن عبد الوهاب، وطبعها بروح العصر جمال

الدين ومحمد عبده. وذلك ما ضاعف حتى الفرنسيين علينا وما جعل خير الاستعمار الفرنسي في بلاد الاسلام (روبير مونتاني) يذكرني دائماً على أني أترجم حركة مليئة بالتعصب الديني والقومي ضد فرنسا لأنها تقوم على أساس الاسلام وما يبعثه في نفوس اصحابه من طموح الى إعادة العصر الأول الاسلامي وفتوحاته الكبرى.

وفي الوقت الذي أكتب فيه هذه المحاضرة تجهز الإقامة العامة الفرنسية في المغرب الأقصى وسائلها المادية والأدبية لمقاومة الحركة الاستقلالية المغربية بجميع مظاهرها، وتحاول أن تبعث في بعض النفوس المريضة مقاومة حزب الاستقلال ورجاله على أنه الذي تسبب في إقبال عدد من الزوايا وفي محمو نفوذ المشايخ والضغط على أتباعهم حتى لا يظهروا بمظهر المربين المخلصين. وبما أن الادارة الفرنسية لم تستطع أن تجد من بين المغاربة من يتزعم هذه الحركة الجديدة فقد استنجدت بواحد من القطر الشقيق (الجزائر) يدعى بالشيخ القندوسي وعقدت حوله ما سمته مؤتمراً يترأسه في مدينة وجدة المراقب المدني الفرنسي لناحية شرق المغرب مسيو (برونيل) وقد انتهى المؤتمر بتأسيس لجنة مزعومة لاتحاد الطرق في شرق المغرب كان أول عملها أن وجهت برقية ولاء لفرنسا ومقيمها العام، ثم تكلف الحبيب الفيلاي ثاني شخصين احتفظ بهما الاستعمار من الإطار البالي لخنونة ما قبل الحرب لعقد اجتماع آخر تحت رئاسة الجنرال حاكم الناحية الفرنسي بمدينة مكناس، فصرح هذا الجنرال في المؤتمرين بأن حزب الاستقلال قد منع، وأن أصدقاء فرنسا من المشايخ يمكنهم أن يستأنفوا نشاطهم في مأمن من ضغط الاستقاليين وصحفهم، وانتهى الاجتماع على تأسيس لجنة اتحاد الطرق لناحية مكناس برئاسة الجنرال وزعامة الحبيب الفيلاي، ولم تستطع لحد الآن السلطات الفرنسية أن تقوم بتأسيس أكثر من هاتين اللجنتين اللتين أصبحتا عرضة التنكيت والاستهزاء من الجميع.

لقد انتهى رمضان وانطلقت العفاريت، منع حزب الاستقلال وأطلقت براذين الاستعمار، ولكن ماذا يستطيع هؤلاء أن يفعلوا إزاء القوة الروحية العظيمة التي غرستها السلفية والحركة الاستقلالية في نفوس المواطنين.

إن الخونة في كل مكان، ومن الظلم للتصوف وطرقه أن نأخذهم حجة عليهما ولكن المؤلم أن الفرنسيين استطاعوا بدسائسهم أن يجعلوا من الذين كان الناس ينظرون لهم على أنهم حراس الأخلاق الإسلامية أداة للدعاية الفرنسية المجرمة، ولولا أن الحركة السلفية عرفت الأمة بحقائق الأحوال لكان رد الفعل في نفوس الشعب الذي يكافح للاستقلال كفراً بالدين وابتعاداً عن الاسلام برمته. وهكذا تسجل الحركة السلفية في بلدنا فضلها في وضع الحق في نصابه وحماية الاسلام من أن يؤخذ في نفوس معتنقيه بذنوب المرتدين عنه من أبنائه.

سيقول الكثير من المخلصين ما الذي يحمل الحركة الوطنية في المغرب على أن تتعب نفسها بالكفاح في جبهات متعددة بعضها خارجي وبعضها داخلي، منها ما يتجه ضد الخرافيين ومستغلي الدين في خدمة الاستعمار، ومنها ما يتجه ضد بعض القواد والباشوات الذين رضوا هم أيضاً أن يكونوا براذين الاستعمار، زيادة على جبهة الكفاح الحقيقي ضد الاستعمار نفسه؟. أفلا تقتضي المصلحة أن يتجه الكل لمقاومة المستعمرين أولاً ثم العودة إلى دراسة الشؤون الداخلية متى تم الاستقلال؟ وهو سؤال في محله، وقد كان الواجب أن يتم الأمر على ما يريده المخلصون لو أن الفرنسيين كانوا يكافحوننا فقط في الميدان السياسي، أي فيما نسميه بالجبهة الخارجية، ولكن الواقع أن الفرنسيين وحدهم هم المسؤولون عن تجنيد كل هؤلاء الأذئاب باسم الخرافة أحياناً وباسم الاقطاعية أخرى. وماداموا قد خلقوا هذه الواجهات فالوطنية المغربية لا تری ضرراً عليها في مكافحة الاستعمار في كل ثغرة، ولن يزيدها ذلك إلا قوة واقتداراً على النضال واستعجالاً للانتصار.

أما أولئك الذين اختاروا لأنفسهم أن يكونوا براذين الاستعمار وأداة تحطيم للدين والدولة باسم الخرافة أو باسم الاقطاعية فالخير للامة أن تكافحهم الآن وأن تجعل مصيرهم مرتبطاً بمصير الحكم الفرنسي في بلادنا، وبذلك يكون انتصار المغرب يوم يتم كاملاً في جوانبه الروحية والثقافية والاجتماعية والسياسية والقومية، وذلك هو الاستقلال الحقيقي الذي نشده، وذلك ما نكافح في سبيله بكل الواجهات والله معنا.

لقد أطلت عليكم أيها السادة، ومع ذلك فإني لن أغادر المنصة قبل أن ألفت نظركم الكريم إلى نقطتين أساسيتين :

الأولى - كلكم يعلم أن الحركة السلفية انبعثت في شكلها الحالي في العالم الاسلامي منذ مائة وخمسين عاماً، وأنها افتتحت بذلك حركة الأفكار الأولى لنهضات جديدة تبعت أجداد العرب والمسلمين وتحمي الدين وأبناءه من مهاجمات الصليبيين والملحددين، وتجعل مجتمعهم صالحاً لمتابعة الحياة في هذا العصر الذي طغت عليه الآلة وتحكمت فيه شؤون المادة. ومن الواجب أن نتساءل عن مدى ما وصلت إليه السلفية وهل نجحت في أداء مهمتها أو فشلت في توجيه المسلمين الوجهة الصالحة، وما هي الأسباب في ذلك الفشل أو ذلك النجاح؟ والحقيقة أننا إذا أردنا مجرد انتباه الوعي الاسلامي والاتجاه نحو إصلاح الحال فإن السلفية قد أدت ثمرتها وأكملت مهمتها لأن العالم الاسلامي كله اليوم متنبه لضرورة الخروج من الهوة التي تردى فيها منذ أزمان طويلة وهو ما ينفك يبحث عن وسائل التحرر من كل القيود الفكرية والسياسية والاجتماعية التي تحول بينه وبين التطور والتقدم، ولكن مهمة السلفية ليست في مجرد بعث إحساس بالالم، بل إنها عملت على

تشخيص الداء وتعيين ما يلزمه من دواء، وذلك بالأسف ما لم تنجح الحركة السلفية في إقناع المسلمين به لحد الآن، إنهم تيقظوا ولكنهم سرعان ما أخذوا يتحولون نحو وجهات مختلفة وغايات متباينة، منها ما يتفق مع الدين ومنها ما يخرج عنه تماماً بل إن الحركة التي أعقبت السلفية في العالم العربي كانت والحق يقال لائكية متأثرة إلى أبعد حدود التأثير بأفكار الثورة الفرنسية وما إليها، وأعظم منها الحركة التي وقعت في تركيا. نعم نجحت الحركة السلفية في بلاد الهند وباكستان وأندونيسيا في إعطاء الأعمال السياسية والشعبية صبغتها الروحية ومحاولتها التوفيق بين حاجات الدين وحاجات العصر، ولكن مضايقات كبيرة حصلت بسبب قيام حركات منحرفة عن الأصول السلفية كالقاديانية وما إليها. وهكذا يمكننا أن نقول إنه بدأت تبلور في العالم الإسلامي قوتان متضادتان هما قوة اللائكية أو اللادينية، وهذه تتمثل بالأسف في العالم العربي وفي تركيا، والثانية قوة إسلامية وهي تتمثل في باكستان وإندونيسيا والعالم العجمي إن صح هذا التعبير. ولكن هذه الحركة نفسها لا تنظم لأصول معينة كما كانت السلفية الأولى. وإنه يمكننا أن نؤكد أن السلفية قد فشلت كلما خرجت من طور البحث النظري إلى طور الحركة العملية أو الخدمة الاجتماعية كما ألف الناس أن يعبروا، وليس أدل على ذلك من حركة الإخوان المسلمين التي هي أجدر من يتبنى الروح السلفية لولا أنها تسامحت لاعتبارات حزبية في قبول كل من طلب الانضمام إليها ولو كان من خصوم السلفية ومبائدها. وإذن فيجدر بأنصار السلفية أن يمتحنوا ضمائرهم ويتذكروا أن مائتي عام ليست بالشيء اليسير في عمر حركة روحية وعقلية دعائها الإسلام الصحيح والعقل المنثور، وأن هنالك تقصيراً لا محالة من طرف الذين كان يجب أن يقوموا بالدعوة وتجليتها في مظاهر عملية أدعى للقبول والاتباع. أما النقطة الثانية - فهي أن مستقبل الإسلام إنما هو في نجاح السلفية الصحيحة، أي في أن يقتنع المسلمون بضرورة العمل بكتاب الله وسنة رسوله، ومسيرة مقتضيات التطور في أساليب الفهم والتقدير للأشياء، والعناية بالعقل الراجح البعيد عن المؤثرات المختلفة والتفكير في دائرة الأصول الإنسانية التي وضحها القرآن ومهدتها تجارب الأمم والشعوب، واعتبار هذه الأسس المقياس الأول والمحك الذي على حكمه المعول بحيث لا تقبل نظرية من النظريات إلا إذا أقرها العقل وصادق عليها الدين.

ومهمة الحركة السلفية هي القيام بنشر هذه الفكرة والدعوة إليها وإقناع الأمة ونخبها بضرورة الإيمان بها والعمل بمقتضاها، وذلك ما يستدعي عملاً متواصلاً وجهداً متوالياً في شرح طبيعة الدين وتجليه أصوله وتقريب فروعه للفهم والادراك ومقارنته بغيره من الأديان والمذاهب وإقامة الحجة على تفوقه عليها وامتياز به أنه الدين السماوي المهيمن على غيره من الديانات والمعتمد على العقل ونواميس الكون وتطورات الزمن في العادات والعبادات، وهذا ما يستدعي أن تتكون في الأمة فئة مصلحة تقصر وقتها على العمل لتحقيق غايات السلفية ومبائدها بوسائل العصر وأساليبه.

ونعتقد أن مصر هي الدولة الوحيدة التي تتمتع بدرجة من الاستقلال والحرية وبشروة من رجال العلم بالدين يسمحان لها بأن تنزعزع بعث هذه الحركة وتنميتها وازدهارها وتنسيق أعمال رجالها.

كما نعتقد أن الأزهر الشريف المهدي الذي تكون فيه محمد عبده وبلغ منه رسالة جمال الدين جدير بأن ينهض في ظروفه الحاضرة بجزء كبير من هذه المهمة الحيوية للإسلام والمسلمين، خصوصاً وفضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الأزهر الحالي الشيخ محمد الحضر حسين في مقدمة أولئك الذين اشتغلوا بنشر السلفية في تونس ونشر هدايتها في القاهرة، فنقترح على فضيلته أن يسير بالأزهر في هذا الاتجاه، وأن يعمل على أن تتبلور في جوه دعوة سلفية ذات حواريين يجدون ويمتهدون في خدمتها وتطبيق مبادئها في مصر وغيرها من عالم الإسلام.

ونرى أن أول ما يجب على شيخ الأزهر أن يقوم به هو الدعوة لعقد مؤتمر دولي عام للجامعات والمعاهد الدينية المنبئة في أنحاء العالم الإسلامي من الصين إلى المغرب الأقصى يكون الغرض منه وضع الأسس النافعة لثقافة إسلامية جديدة تتحد حولها مواد الدراسة ومناهجها في هذه المعاهد، وتسندتها تربية متينة على أسس السلفية، وتوجيه قوى الخدمة غاياتها، وهكذا تتجدد هذه المعاهد التي طالما حملت مشعل العلم والدين والحضارة أزيد من ألف عام وتصبح قادرة على أن تغرس أفكار السلفية الصحيحة غرساً مثمراً في كل الأوساط، وتنجب حواريين قادرين على العمل بكل ما يستطيعونه لتحقيق البعث الإسلامي الذي ينتظره أربعمائة مليون من المسلمين، ومنتظره معهم ملايين البشر ممن غرقوا في مادية العصر ولم يجدوا منار الروح الذي يهديهم سواء السبيل.

إن الأزهر الشريف إذا حقق هذا الاقتراح الذي أعرضه على رئيسه الفاضل بكل احترام يكون قد وضع نفسه في السبيل الذي يهيء له ولنا أسباب الكفاح الإسلامي والبناء القومي، وليس ذلك على همة العاملين المخلصين بعزيز...